مصطلح الخطاب الرحلي وتداخل الأجناس

The term flight discourse and the intersection of genders

ط.د/ عبير عماجي[1,*] ، أ.د/ محمد زرمان[2]

[1] جامعة باتنة1، (الجزائر)، abir.amadji@univ-batna.dz

[2] جامعة باتنة1، (الجزائر)، mohamed.zermane@univ-batna.dz

مخبر الموسوعة الجزائرية الميسرة

تاريخ الإيداع: 2025/04/10 تاريخ المراجعة: 2025/06/17 تاريخ النشر: 2025/07/01

ملخص:

يعد خطاب الرحلة تجربة فنية جمالية يعيشها المؤلف، وما يميز أدب الرحلة هو أسلوبه الأدبي والفني ولغته المميزة وتداخلها مع مختلف الأجناس الأدبية شعرا، قصة...، والهدف من البحث فهو إضاءة وتعريف جانب من أنواع الأدب وهو الخطاب الرحلي، والكشف عن جمالياته، وتداخله مع مختلف الأجناس الأدبية، من هنا نطرح مجموعة من التساؤلات أهمها: ما هو مفهوم الخطاب الرحلي كنوع أدبي له مميزاته وخصائصه؟ وما هي أبرز الأجناس الأدبية التي تداخل معها هذا الخطاب؟ للإجابة عن هذه التساؤلات اعتمدت المنهج التاريخي والوصفي التحليلي لتتبع تاريخ الخطاب الرحلي ووصفه كظاهرة أدبية، وأهم نتائج البحث هي أن الخطاب الرحلي شكل أدبي قائم بذاته، تتلاقى فيه أجناس أدبية، وأنواع من الخطاب تنقلها شخصية متنقلة في طابع مميز.

الكلمات المفتاحية: الخطاب الرحلي؛ تداخل الأجناس؛ الأدب؛ الرحلة؛ ظاهرة أدبية

Abstract:

The rhetoric speech is an aesthetic artistic experience in the author, describing what he saw and the goal of research is lighting and definition distinguished and overlapping with a part of the types of literature, which is nomadic discourse, revealing its aesthetics, and its interference with various races literary, from here we ask a set of questions, the most important its advantages and characteristics? To answer this question adopted the historical and analytical descriptive approach to track the history of the journalist and described it as a phenomenon literary, and the most important research results are that the journalistic discourse is a stand –alone literary from, in which literary races and types avoid from the speech, it is transmitted by a mobile person in a distinctive character.

Key words: *nominal discourse; races overlap; literature; journey; a literary phenomenon.*

* المؤلف المراسل.

تقديم:

الرحلة انتقال في المكان والزمان، ونوع من أنواع السفر، حيث يأخذنا الرحالة بفكره ومعارفه وما يعيشه من أحداث، ونظرته للناس والمجتمع أثناء ترحاله، لكن لم يقم الجميع بتدوين ما مروا به، إلا أن هناك من وثّقوا رحلتهم، وذلك لشعورهم أنهم اطلعوا على ما لم يطلع عليه غيرهم حتى يعرفه من لم يرحل إلى تلك الأماكن حسب الرحالة وثقافته ومكان الرحلة وزمانها ونوعها والغرض منها، فكلها تلعب دورا كبيرا في إخراج الرحلة في صورتها الذي يصلنا، وقد عرفها الانسان مع معرفته للكتابة التي اعتبرها وسيلة لنقل ما يشاهده واكتشافه للأماكن والمناظر الجديدة والغريبة التي تترك أثرا في نفسه ويدفعه إلى هذا حب المعرفة والرغبة في خوض غمار المجهول، فالرحالة يقوم بالانتقال من حياة لها نظامها وتاريخها وثقافتها إلى أنماط ثقافية جديدة.

وخطاب الرحلة من أكثر الأجناس الأدبية انفتاحا على فنون الأدب الأخرى على اختلافها، حيث نجدها تتضمن أشعارا أو قصصا أو حتى سيرا وتراجم، كما أنها مسألة من أهم المسائل التي اهتمت بها الأبحاث فلكل جنس أدبي خصائصه التي تميزه عن غيره وتفصله عن باقي الأجناس وهذا لا يمنع أن تتلاقى هذه الأجناس وتتداخل فيما بينها لتشكل كلا يجمع العديد من الفنون الأدبية داخل جنس كبير هو الرحلة.
ويهدف هذا البحث إلى الكشف عن كنه خطاب الرحلة، هذا الخطاب الذي فرض لنفسه مكانة كبيرة منذ القدم وحافظ عليها إلى يومنا هذا كونه فنا أدبيا مميز، وهذا الأدب ليس بمعزل عن باقي الأجناس الأدبية بل استطاع أن يحتك بها لتصبح جزء منه، وهذا يدفعنا إلى طرح مجموعة من التساؤلات من بينها: ما هو مفهوم الرحلة؟ وما هي أنواعه وأهم الأجناس الأدبية المتداخل معه؟ وللإجابة عن هذه التساؤلات اخترت المنهج الوصفي التحليلي لوصف هذا الفن الأدبي والوقوف عند أهم عناصره وتداخله مع باقي الأجناس على اختلافها.

أولا: مفهوم الخطاب

الرحلة قبل أن تستقر كنوع أدبي كانت تحضر في نصوص أدبية كعنصر فيها، فنجدها في الشعر والرواية والسرد، ثم ما لبثت أن أصبحت فنا أدبيا قائما بذاته وذلك "عندما بدأ تدوينها وكتابتها كنص سردي يحكي هذه التنقلات"[1] التي يعيشها صاحب هذه الرحلة سواء كانت هذه التنقلات حقيقية أو متخيلة، فينتقل بها صاحبها من مجرد أحداث تساق ضمن أي سياق إلى خطاب له أحداثه ضمن زمان ومكان معينين، أما التسميات المتعلقة بهذا النوع من الأدب فهي تدور ضمن مجموعة من المصطلحات: أدب الرحلة، الرحلة، الأدب الجغرافي، الخطاب الرحلي، وقبل الانتقال إلى الخطاب الرحلي كمصطلح نبدأ ب:

ثانيا: الخطاب

الخطاب: ذكر مفهوم الخطاب لدى بعض المفسرين "أن الخطبة مصدر الخطيب، لا يجوز إلا على وجه واحد وهو أن الخطبة اسم الكلام الذي يتكلم به الخطيب فيوضع موضع المصدر"[2] وإذا اعتبرنا الكلام خطابا يهتم بالمتخاطبين والمخاطبة، فان الهدف منه سيكون تواصليا بين الأفراد.

وقد شرح الرازي مصطلح الخطاب ضمن قوله تعالى عن النبي داوود عليه السلام "وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة فصل الخطاب فقد عدّ قوله تعالى "فصل الخطاب" من الصفات التي أعطاها الله لداوود وهي علامة على القدرة والادراك والشعور وتميز الانسان عن سائر الخلق واختلاف القدرة على التعبير من شخص لآخر فمنهم من يتقن عملية الافهام إيصال المعنى المراد بالتعبير المناسب ومنهم من ليست له القدرة على ذلك"[3]

يمكن اعتبار الخطاب هو كل ما أدرك معناه غايته، وتلك القدرة الإفصاح، والتمكن من التعبير فيكون بذلك لكل مقام مقال، من هنا يمكن القول أن الخطاب "هو عبارة عن أحكام وقواعد تسلسلها الجمل والأفكار أو توالي العبارات في الكلام"[4]، أي أن الخطاب يخضع إلى الترتيب والتعقيب والتنظيم ضمن الإطار العام للغة وهو يعكس ذلك الارتباط بين الفكر واللغة من خلال التعبير عن فكرة صاحب الخطاب، ومدى استطاعته بناء الخطاب وفق قواعد معينة لأداء وظيفة معينة وهي الممارسة اللغوية.

أما مصطلح الرحلة فيحمل المانى الآتية:

ثالثا: مفهوم الرحلة

تعني حركة انتقال يقوم بها شخص فأكثر من مكان إلى مكان آخر، فعند ابن منظور "رحل الرجل، إذا سار، ورجل رحول، وقوم رحّل، أي يرتحلون كثيرا: عالم بذلك ومجيد له ...والترحل والارتحال: الانتقال. والرحلة: اسم للارتحال. وقال بعضهم: الرحلة: الارتحال، والرُّحلة بالضم: الوجه الذي تأخذ فيه وتريده"[5].

أما في معجم مقاييس اللغة لابن فارس: "رحل: الراء والحاء واللام أصل واحد على مضي في سفر. يقال رحل يرحل رحلة...والرحلة: الارتحال ورحّله، إذا أضعنه من مكانه"[6].

إذن يمكن اعتبار الرحلة في معناها اللغوي تعني مجموعة من الأحداث يرويها الرحالة أثناء سفره، فيسرد ما عاشه وما شاهده باعتبارها خطابا، ولا يتم هذا الخطاب إلا من خلال القيام بفعل السفر سواء كان ذلك حقيقيا أو رحلة خيالية كما نجده في رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد والغفران لأبي العلاء المعري.

كما أن الرحلة تجمع بين العلامات اللغوية وغير اللغوية كالرسم والصور الفوتوغرافية أي "تتفاعل مع المكتوب بأبعاد جديدة تجعل من نص الرحلة نصا متعدد الأنظمة والصيغ التعبيرية المختلفة"[7]، فتعطيها صبغة جديدة تميزها.

وتختلف الرحلات على حسب نوعها إلى: رحلة الحج، رحلة طلب العلم، رحلة التجوال والطواف، وكل رحلة وما يميزها عن غيرها إلا أنّ هناك نقاط مشتركة تجمعهم من بينها "الشمول والتنوع وهما ملمحان بارزان في معظم ما كتب في هذا الميدان، حيث تتسع موضوعات كتبهم فتشمل التاريخ والجغرافية والدين والاجتماع والسياسة، كما تعنى بالوصف الدقيق والتصوير الأمين والنقل الصادق وتتحلى بالانتقاد عن الهوى والميل الذاتي"[8]، وتختلف هذه الرحلات حيث لكل المدة الزمنية التي تستغرقها وقد تكون طويلة أو قصيرة، تصل إلى عشرات السنين "ولا يبقى بعد ذلك إلا الإصرار مهما بعدت الشقة على استمرار التحرك وبلوغ الغاية، ولا شيء مهم يمكن أن يثني هذا العزم أو أن يحبط هذا الإصرار"[9] ويتبع هذا الصبر والإصرار كشوفات واستكشافات وعادات الأمم وتقاليدها وحتى ثقافتها وبالتالي التواصل بين مختلف الشعب والكشف عن الأماكن الجغرافية المختلفة، ومحمد الفاسي يرى بأنّ فن الرحلة في أصله له أصل متين بالجغرافية، إذ الكتب الأولى المؤلفة في هذا العلم كانت تتخذ صبغة الرحلة، وذلك أن الجغرافي كان أولا يطوف البلاد التي يود التكلم عليها، ويخترق مسالكها ويقف بنفسه على أحوالها، ثم يضع بعد ذلك كتابه، ويصفها فتكون عملية الوصف لكل ما تقع عين الواصف عليه من الواقع إلى الكتابة بطريقة فنية، وحسب الباحثة جميلة روباش "الرحلة كتابة يحكي فيهالا الرحالة أحداث سفره وما شاهده وعاشه مازجا ذلك بانطباعاته الذاتية حول المرتحل إليهم، وإنجاز الرحلة –كتابتها- يتطلب أن يكون الرحالة ذا مستوى ثقافي معين يؤهله لنقل أحداث سفره إلى كتابة"[10]، فالرحلة من خلال كونها فنّا أدبيا ليس للجميع القدرة على كتابتها، ولا تتاح لأي شخص هذه القدرة على نقل الرحلة من مناظر ومشاهد إلى كتابة فنية يتم فيها سرد الاحداث بطريقة جمالية نابعة عن شغف صاحبها وانطباعاته عما رأت عيناه وهذا الأخير عليه أن يكون "ذا زاد ثقافي وعلمي وأدبي، يساعده على نقل الرحلة من الحركة والانتقال والمشاهدة، إلى الكتابة ذات الملامح الفنية، لتصبح بعد ذلك تتمظهر فيه عناصر جمالية، تضفي عليه صفة الأدبية التي تضمن له البقاء"[11] فالرحالة أثناء زيارته لمختلف الأماكن يسرد من خلالها تلك المغامرات التي قام بها والمواقف التي مرت بها به وهو يجوب البلدان فيصور ما يسمعه ويراه وما يلاحظه فيترك انفعالا فيه "فأدب الرحلة أدب وصفي ذو طابع إخباري تسجيلي يهتم بجميع أخبار البلاد والعباد وتسجيل المشاهد الغريبة والطريفة وهو يتسم بسمات تاريخية وجغرافية لاهتمامه بحياة الناس وتقاليدهم وأنماط عيشهم كما يتميز بمضمونه الفكري والاجتماعي وأسلوبه الأدبي المتميز غالبا عما يراه"[12]، فأدب الرحلة أدب شامل لمختلف العلوم والمجالات شمل الأدب والجغرافيا والرسم والتاريخ، ويفتح المعرفة لمختلف الشعوب لتتبادل

المعارف والعادات والتقاليد والعلوم، فيكون أدب الرحلة مرآة عاكسة لنقل طريقة عيش وتفكير وعلم هذه الشعوب.

رابعا: خطاب الرحلة

إن الحديث عن الرحلة كخطاب يعطي هذا النوع من الادب خصوصية من حيث المفهوم، وتنوع المرجعيات الثقافية، الناقد سعيد يقطين يقول بأن "خطاب الرحلة عملية تلفيظ لفعل الرحلة"[13]، أي أن هذا الخطاب المكتوب مقابل للرحلة حقيقتها فتكون بمثابة وصف شامل لما يراه الرحالة في سفره أو أسفاره، وخطاب الرحلة أو أدب الرحلة يمكن اعتباره "جنسا أدبيا قائما بذاته له سماته واستقلاله الذاتي عن باقي العناصر، ما يجعلنا نبعده عن الجغرافيا أو التاريخ أو الاثنوغرافيا أو الفن القصصي"[14] فهو نوع من أنواع السرد ينقل جانبا من حياة الفرد بطريقة تعكس ثقافته في بلورة الاحداث إلى خطاب فني أدبي مركزه هو ذات الرحالة التي تحكي وتصف الأماكن التي استوقفته، والحوار الذي دار بينه وبين شخصيات هذه الرحلة، لتكون الرحلة بذلك ظاهرة أدبية بامتياز، تتداخل في تشكيلها عناصر أدبية وغير أدبية فهي تشكل نصا مفتوحا نتيجة مجموع مكونات ثقافية واجتماعية وسياسية، تستقي بعض عناصر ها من مختلف الأشكال النثرية والمجالات التاريخية والجغرافية، تكون فيها الرحلة هي النواة والأساس والأجناس الأخرى مكملة لها فبمجرد قولنا خطاب هذا يفتح الباب أمام مختلف هذه الأجناس لتشارك وتسهم في بناء هذا الخطاب الذي عادة ما يكون مفتوحا على عدة مقاصد يستشفها القارئ من باطلاعه عليه، فالتأليف في خطاب الرحلة يقتضي "ثقافة واسعة، ودقة في الملاحظة، والتقاط الملامح ومشاركة عدد كبير من المعارف لاحتواء الرحلة على معارف وعلوم متعلقة بالتاريخ، والجغرافيا، والفلسفة والاجتماع والأدب وتفرض الأناقة في تخير المفردات وصياغة العبارات وتنسيق الفصول"[15]

خامسا: أنواع خطاب الرحلة

عرف خطاب الرحلة تنوعا، واختلف الدارسون حول حصر هذه الأنواع وتحديدها، وذلك لكثرة هذه الرحلات واختلاف أسبابها والغاية من وراءها، فمثلا صلاح الدين الشامي قسمها إلى ستة أنواع "ثلاثة منها: ظهرت قبل الإسلام، وهي رحلة التجارة، ورحلة الجهاد، والرحلة السفارة، والثلاثة الأخرى ظهرت بعد الإسلام، وهي رحلة الحج، ورحلة طلب العلم، رحلة التجوال والطواف"[16]، وتقسيم صلاح الدين خاضع للزمن والهدف من وراء هذه الرحلة فهو يقول "الرحلة اعتبار من القرن السادس الهجري العاشر الميلادي انطلقت على أوسع مدى، وتجاوزت ديار المسلمين على أمل أن تحقق أهداف متنوعة، اقتصادية وهي

تعمل لحساب التجارة، ودينية وهي تعمل لحساب فريضة الحج، وإدارية وهي تعمل لحساب العلم وطلب ، وأكثر هذه الأنواع شيوعا وانتشارا هي كالآتي:[17] المعرفة"

1/ الرحلات الدينية

ارتبط هذا النوع من الرحلات بفريضة الحج ورغبة الناس في آداءها، بزيارة بيت الله الحرام، وشوقهم ورغبتهم الجامحة لرؤية قبر الرسول ﷺ، فالحج كان ولا يزال رحلة يتشوق الناس للقيام بها، كما سمي هذا لنوع من الرحلات بالرحلات الحجية أو الحجازية، وهناك نوع آخر من الرحلات الدينية يطلق عليه وأشهرهم الرحلات الزيارية والصوفية، ويحمل طابعا روحي وديني، ويكون من خلال زيارة الزهاد والوعاظ أبو بكر الهروي الذي توفي عام 611هـ/1215م، من أشهر من زار الأماكن المتبرك بها، كما أنه كان يدوّن تنقلاته بعنوان "الإشارات إلى معرفة الزيارات" كان يصف فيها زياراته للأضرحة والمقامات المختلفة، ونجد فيها إشارات تاريخية وجغرافية عن الأماكن التي مرّ بها.

2/ الرحلات العلمية

كان بعض الرحالة ينتقلون من مكان لآخر بهدف طلب العلم واكتناز المعرفة، وتعود بداية هذا النوع من الرحلات إلى بداية انتشار الإسلام، وأبرز رحلة لطلب العلم كانت في القرن الثاني للهجرة، وهو ما نسبه الربيع بن سليمان إلى شيخه الإمام محمد بن ادريس الشافعي (204هـ) ما رواه عنه في قوله "وأقبلت أطوف العراق وأرض فارس وبلاد العجم وألقى الرجال، حتى كتبت وأنا ابن إحدى وعشرين سنة"[18]، وكانت الغاية منها هو لقاء العلماء والتزود بالعلم حتى أنه في العصور الإسلامية الأولى كانت الرحلات معيارا للحكم على العلماء.

3/الرحلات التجارية

إن التجارة منذ القديم فعل يستلزم السفر من أجل كسب المال واجراء المعاملات التجارية، ومما يشجع على هذه الرحلات الموقع الاستراتيجي للبلاد العربية التي يأتون إليها من أقاصي البلاد وأدانيها مما يشجع على هذا النوع من الرحلات في مختلف البلدان العربية على اختلافها فنجد مثلا "المغاربة قاموا بالعديد من الرحلات من أجل التجارة، وهم أولئك الذين جابوا البحار والمحيطات، وسافروا عبر المغاور نقلا لبضائعهم من بلد لآخر وقد تقتضي تجارتهم هذه بضع سنين، يسجلون فيها كل ما عاشوه بأسلوب شيق

وجل ما صادفوه وشاهدوه"[19]، فالرحلة في أصلها تجارية إلا أن الرحالة يصادفه أثناء رحلته العديد من الأحداث التي يرويها ضمن سفره.

4/ الرحلات السياحية

الرحلات السابقة كانت تندرج تحت غاية معينة (الدين، التجارة...)، أما هذا النوع من الرحلات فالغرض منه هو السفر، والغرض من وراءه فقط المتعة واكتشاف الأماكن والتمتع بالمناظر "يقوم الرحالة بالسفر بمحض إرادته دون دوافع خارج حدود الذات"[20]، فنجد مثلا ابن بطوطة الذي زار مختلف بقاع الأرض، والدافع وراء ذلك هو رغبته في الخوض في المجهول ليصبح معلوما عنده، وإن يطلع على مختلف الحضارات فيتعرف على ثقافاتها المختلفة، وقد قضى عمرا كثيرا في الترحال

5/الرحلات الرسمية

يضم هدا النوع من الرحلات كل من : الرحلات التكليفية والإدارية وتكون من أجل "تفقد أمر الرعية، أو تلبية طلب الحاكم في معاينة أماكن مجهولة أو بعيدة، أو الاتيان بإخبارها، فقد تكون في إطار التجسس او الاستطلاع"[21]، ويمكن اعتبار السفارة الشكل الرسمي للرحلات، حيث يقوم الحاكم بتكليف أحد الرحالة و"كانت السفارة لا تنقطع بين الدول العربية، وما جاورها من الدول لأغراض ومقاصد متنوعة أما لتصفية الأمور السياسية أو لمقصد الصلح وقد تكون نتاج علاقات سياسية " وقد تميز هذا النوع بعقد الصفقات التجارية ، والحفاظ على العلاقات، كما يستقبل فيه الرحالة بطريقة رسمية ، وأثناء سفرهم هذا يقوم الرحالة بكتابة ووصف ما وجده من ترتيبات الدول ونظامها ومرسم الاستقبال بالإضافة إلى ما رآه من عادات وتقاليد، ويوكل بها الرحالة من طرف الحاكم، ويتنافسون على أدائها لأن السفير يعد ممثلا للدولة "وكانت السفارة لا تنقطع بين الدول العربية، وما جاورها من الدول لأغراض ومقاصد متنوعة، إما لتصفية الأمور السياسية أو لمقصد الصلح، وقد تكون نتاج علاقات سياسية"[22]

سادسا: التداخل الأجناسي في أدب الرحلة

1/ أدب الرحلة والرو اية

انفتح أدب الرحلات على بقية الأجناس الأدبية، وفن الرواية من أكثر الفنون تمازجا مع أنواع الأدب وبالأخص أدب الرحلات الذي يعد واحدا من أكثر الأنواع الأدبية ارتباطا بالرواية فما علاقة أدب الرحلة بالرواية؟

بما أن الرحلة والرواية كلاهما ينتسبان إلى حقل السرد، فانهما يتقاطعان في عدة نقاط مشتركة، وكل منهما يستعير خصائص الآخر، وما يجمع بينهما أكثر مما يفرق بينهما، حتى أن هناك بعض النصوص التي توصف أحيانا بأنها رحلة وأحيانا أخرى بأنها رواية، ونظرا لهذا التداخل نجد الباحث بلقاسم ألّف كتاب عنوانه "فن الرحلة في الرواية العربية"، وهذا العنوان يعكس أن الرحلة متضمنة في الرواية، كما نجد مجموعة من عناوين كتب هي روايات تحمل اسم الرحلة مثل: الرحلة الأصعب لفدوى طوقان، والرحلة الأخيرة لهشام شرابي، ورحلة ابن فطومة لنجيب محفوظ، وإلى غير ذلك من الكتب التي تربط بين فني الرحلة والرواية، ونجد في هذا قول عبد الرحمن مودن "ولما كان المكون الفاعل في جسد الحكاية وجسد التاريخ أيضا هو المكون الرحلي فإن السرد في هذا النص يخضع للصياغة الروائية قبل الصياغة الرحلية"[23] ، هذا النص يجعل القارئ يلتبس عليه الأمر حول ما يقرأ حول ما إذا كان رواية أو رحلة، ويمكن أن تكون نقطة تمايز واحدة للتفريق بينهما وهي الحبكة فمتى وجدناها في نص فنحن أمام رواية، أما إذا كانت غائبة فنحن أمام رحلة.

نأخذ كنموذج رواية رحلة ابن فطومة لنجيب محفوظ التي نجد فيها تداخل أجناسي ومزج لخصائص كل من الرحلة والرواية، فمن يلقي نظرة على هذه الرواية يجد بأنها لا تكاد تخلو في بناءها الجمالي والدلالي من السمات الفنية الرحلية من خلال حديثه عن الرحلة والسفر والتي تحمل داخلها حب الاطلاع والاكتشاف، ذلك أن فن الرحلة ينزع أن يكون متأصلا في كل عمل روائي ذلك أن كل رواية هي رحلة للذات البشرية بالضرورة، رحلة ظاهرة تعلن عنها الفواعل أو خفية مستترة يكشفها الناقد والقارئ على حد سواء، ونجيب محفوظ في هذه الرواية يتحدث عن رحلة قام بها قنديل ابن فطومة الأزهري إلى دار الجبل باعتبارها مكانا متخيلا اقتضى المرور من عدة أماكن منها دار المشرق ودار الحيرة ودار الحلبة ودار الأمان ودار الغروب،

والرحالة في هذه الرواية هي الذات الساردة كما هو الحال في الرحلات، وهو ما صرّح به في قوله "عرفت الرحلات في صحبة المرحوم أبي فطومة بالمشرق والمغرب"[24]، والمطلع على أدب الرحلات يجد ان مثل هذه العبارات لها حضور كبير في أدب الرحلة، وكذلك حب المعرفة الذي نجده في قوله "ليس هذا بالكثير على طالب الحكمة أريد أن أعرف وأن أرجع إلى وطني المريض بالدواء الشافي"[25]، وهذا ما نجده في أدب الرحلة مما يكون عند الرحالة من حب الاكتشاف والاطلاع كما في قوله "وأخذت في الاستعداد للرحلة مسترشدا

بأستاذي الشيخ مفاغة فملأت حقيبة بالدنانير وثانية بالملابس وثالثة باللوازم ومنها الدفاتر والأقلام والكتب"[26]، كما أن القارئ لهذه الرواية يلاحظ أيضا أن الكاتب يصف الأماكن والبقاع، وهذه أهم صفة من صفات الرحلة كما هو الحال عند وصفه لإحدى المدن "إن مدينة كإحدى مدن بلادي فيها ميادين وحدائق شوارع وحواري وعمائر وبيوت ومدارس ومستشفيات عامرة بالخلق وفي كل موقع شرطي وملاهي الرقص والغناء موفورة وسوقها كبيرة مترامية متعددة الحوانيت"[27]، وهذا الوصف الدقيق للأماكن يخص أدب الرحلة ذلك لاهتمامها بالأماكن.

نلاحظ من خلال هذه النصوص أن هناك تداخل بين أدب الرحلة وفن الرواية لدرجة التماهي، ربما يعود ذلك إلى التداخل الكبير بينهما، وقدرة نجيب محفوظ على المزج بينهما فقد "جعل نجيب محفوظ روايته على شكل رحلة وأفاد من لغة التراث مثلما احتفظ بالتشويق والسحر الذي يطبق عالم المغامرات الخيالية وهذا الشكل له جذور عريقة في التراث العربي الإسلامي الذي ولد وترعرع على أيدي ابن فضلان وابن بطوطة وابن جبير، وهو من الأشكال المناسبة التي تساعد على تحديث الرواية العربية وتأصيلها في الوقت نفسه. إذ يشتمل على آليتين مهمتين في البناء الروائي الأولى آلية القص والثانية آلية الوصف فضلا عن حس المغامرة والطابع الغرائبي المميز لأدب الرحلات"[28].

إذن فالروايات التي تحمل داخلها نصا رحليا سواء كانت حقيقية أو مجاز تحمل الكثير من خصائص أدب الرحلات وهذا التداخل الكبير بينهما يجعل من الصعب على الدارسين والمحللين أن يفرقوا بينهما، وهذه الدرجة من الالتقاء لا ينفي وجود سمات خاصة بكل واحد منهما وهوما نجده عند الكاتب حنا عبود في قوله "أن الماء يتفاعل مع الحديد، ومع ذلك له خصوصيته التي يتفرد بها، بل إن الهيدروجين والأكسجين في الماء ذاته يتفرد كل واحد بخصوصيته التي لا يشاركه فيها الآخر، على الرغم من اتحادهما"[29]، أي أن لكل نوع خصوصيته والأمر كذلك بالنسبة للرحلة والرواية وهذه الخصوصية لا تعني أن لكل فن قالب ولا يمكن أن يتجاوزه إلى فن آخر، لأنه مهما بلغت درجة خصوصيته فإنه مفتوح دائما على الأشكال الأخرى ومتفاعل معها خاصة فن الرواية لأن "الشكل الروائي شكل قابل للتفاعل أكثر مع بقية الأشكال، والرواية مشروع منفتح دائما ولكن هذا لا يقتضي التسليم بأنها أيضا نتيجة لمفاعلات سابقة ومنها لعبة الشكل مع الأنواع الأدبية الأخرى"[30]، وهذا من مميزات الرواية لكن ليست وحدها لأنه حتى "أدب الرحلات لون من ألوان الأدب ذو خصوصية وتميز، ولئن اشترك أدب الرحلات مع فن الرواية من حيث اللجوء إلى السرد والوصف، فإنه يختلف في عدم اللجوء إلى الخيال، وفي حين أن الرواية لا تقدم معلومة إلا نادرا، فإن أدب الرحلات يقدم معلومات هائلة، في ثوب أدبي متفاوت بحسب الكاتب وقدراته، ومن إحدى مميزات أدب الرحلات أنه يمنح الكاتب حرية قلما تتوافر في الأشكال الأخرى في الفنون الأدبية، وهي حرية اختيار

المشاهد والحوادث وحرية إصباغ ثقافته وقدرته الإبداعية النثرية أو الشعرية على ما يكتب، أو ما يريد أن يكتب"[31]، فلو تحدثنا مثلا عن الزمان والمكان: فالرواية تقوم فيه على أساس السرد فيما يأتي الوصف ليضيف جوانب جمالية للنص، وهذا عكس خطاب الرحلة الذي يمكن اعتباره خطابا وصفيا، وذلك أيضا أن السرد يرتبط بفعل جرى، أما الوصف فهو مرتبط بالحاضر، فلو تأملنا رحلة كل من جبير وابن بطوطة وزمن دخولهما إلى بغداد فتقديمهما كان وصفا تقريبا، ومنه لا يمكن الحديث عن الرواية دون الحديث عن الرحلة، لأن كل رواية تحمل داخلها رحلات سواء كانت حقيقية أو خيالية، كما أنه حتى الرحلات يمكن اعتبارها رواية لصاحبها لما تحمله من أحداث وخصائص ومكونات الرواية من زمان ومكان وشخصيات...

1/ علاقة أدب الرحلة بالشعر

نجد الكثير من أدب الرحلات يحمل في متنه الكثير من الأشعار على اختلاف مواضيعه وأغراضه، وتختلف قيمه الجمالية، وهذه الأشعار قد تكون من إبداع الرحالة كما قد تكون منقولة عن غيره ممن يقولون شعرا، فالرحالة يقوم بتزيين رحلته بالشعر وذلك للمكانة الكبيرة التي يحتلها فهو ديوان العرب، وكأن الرحالة يقوم بإدخال الأشعار على رحلته لإمتاع القارئ بخطابه الشعري فيزيد خطابه الرحلي جمالا، بجمال الأبيات الشعرية التي ينظمنها، ذلك أن الشعر يستخدم كشاهد وحجة لإقناع الآخر والتأثير عليه، كما أنّ الرحالة من خلاله يبرز سعة ثقافته وقدرته الأدبية، فهو "في ذلك إنما يحاول دون ريب إثبات اطلاعه وقدرته الأدبية وتطعيمه نص الرحلة ليكسب بهذا التزويق كلام صاحبها حيوية أكثر تقربه إلى النصوص الأدبية"[32]

2/ علاقة الرحلة بالسير والتراجم

إن العلاقة التي تربط أدب الرحلة بالسير والتراجم واضحة جلية، لأن الرحلة في أغلب الأحيان تتضمن سيرة صاحبها أثناء الرحلة، فالرحالة غالبا ما يمكن معرفة تفاصيل حياته من خلال متابعة رحلاته، كما قد يذهب إلى الاخبار عن نسبه وحسبه وحاله وأحوال أهله وعصره، وبالتالي يبين قيمته الاجتماعية والعلمية، وقد تضم الرحلة تراجم لعلماء عاصروا الرحالة مثل ابن حمادوش في رحلته لسان المقال عن النسب والحسب والحال، فهذه الرحلة لم تضم سيرة ابن حمادوش فقط بل ضمت العديد من العلماء والشخصيات على اختلاف قيمتهم العلمية ومكانتهم، وقد زخرت هذه الرحلة بتراجمهم وهو ما جعلها "مصدر كبير الأهمية لدراسة تراجم الرجال"[33]، فقد أورد حوالي 72 ترجمة لشخصيات مختلفة، بعضهم كان من شيوخه ومنهم من أخذ الاجازة عنهم ، ومنهم من كان تراجما للخلفاء العباسيين من الخليفة أبي

العباس السفاح إلى الخليفة الراشد ورتبهم ترتيبا زمنيا وحسب خلافة كل واحد منهم، كما ذكر العلماء كابن سينا وإقليدس، وزيادة على هذا فقد أورد بعض التراجم للرسول صلى الله عليم وسلم، وبعض الأنبياء، وبعض أخبار الأمم السابقة...

إذن أدب الرحلة انفتح على مختلف الأجناس الأدبية على اختلافها، ولم يبق حبيس السفر الذي كان يقوم به الرحالة، بل أضفى على هذا السفر ما يزيد خطاباته الرحلة جمالا وتنوعا أكسبها التميز.

خاتمة:

نخلص من خلال هذا البحث إلى مجموعة من النتائج:

- يتصف أدب الرحلة باعتماده على الوصف كغرض يميز الرحلات
- يعد أدب الرحلة من أقدم الفنون الأدبية، والتي نشأت مع بدايات الأدب
- يعتمد خطاب الرحلة على ما يراه الرحالة ويصفه من أحداث وأخبار خيالية أو حقيقية
- خطاب الرحلة فن أدبي قائم بذاته له مقوماته الخاصة وتتلاقى معه أجناس أدبية أخرى انفتحت عليها وضمتها داخل قالبها
- الرحلة وسيلة للتعرف على الشعوب ومرآة تعكس عاداتهم وثقافتهم
- لعب خطاب الرحلة دورا كبيرا في التوثيق لعلماء كانوا سيصبحون في طي النسيان
- تنقسم الرحلة إلى عدة أنواع تختلف حسب الغرض أو الهدف منها
- يتناول الرحالة خطاب الرحلة بطريقة سردية تضفي على النص جمالا أدبيا وفنيا.

هوامش وإحالات المقال

[1] حليفي شعيب، الرحلة في الأدب العربي، ط1، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2006م، ص120.

[2] ابن منظور، لسان العرب، دار لسان العرب، بيروت، 1988م، ص856.

[3] الشهري عبد الهادي بن ظافر، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، 2004م، ص35

[4] خليل أحمد خليل، مفاتيح العلوم الانسانية معجم عربي فرنسي انجليزي، دار الطليعة، بيروت، ص182.

[5] كرمود فرانك، الرواية والسرد، محي الدين صبحي، مجلة الآداب الأجنبية، العدد 3، السنة الرابعة، ص172.

[6] لوبوك برسي، صنعة الرواية، ترجمة عبد الستار جواد، بغداد، ص255.

[7] مودن عبد الرحمن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، مستويات السرد، ط1، دار السويدي أبو ظبي، دار الأهلية عمان، 2006م، ص186.

[8] النساج سيد حامد، مشوار كتب الرحلة (قديما وحديثا)، دار غريب للطباعة، القاهرة، ص9

[9] المكناسي محمد بن عثمان، الاكسير في فكاك الأسير، تحقيق محمد الفاسي، المركز الجامعي للبحث العلمي، ص ح.

[10] روباش جميلة، أدب الرحلة في المغرب العربي (دكتوراه)، قسم الآداب واللغة العربية، كلية اللغات والآداب، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2014م، ص8

[11] حسيني الطاهر، الرحلة الجزائرية في العهد العثماني-بناؤها الفني أنواعها وخصائصها (دكتوراه)، قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، (2014/1013م) ص22

[12] عزوزي عبد الصمد، الرحلة في المغرب العربي، دوافعها أنواعها، روّادها، دراسات أدبية، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010م، ص134.

[13] يقطين سعيد، السرد العربي القديم، ط1، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2006م، ص200.

[14] ينظر، كليطو عبد الفتاح، المقامات السردية والأنساق الثقافية، ترجمة عبد الكريم شرقاوي، ط1، دار توبقال، المغرب، 1933م، ص127.

[15] جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، ط1، بيروت، لبنان، 1979م، ص122.

[16] الشامي صلاح الدين علي، الرحلة عين الجغرافيا المبصرة في الكشف الجغرافي والدراسة الميدانية، ط2، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1989م ص114.

[17] الشامي صلاح الدين علي، الرحلة عين الجغرافيا المبصرة في الكشف الجغرافي والدراسة الميدانية، 1989م، ص114.

[18] الشافعي محمد بن ادريس، رحلة الشافعي، المطبعة السلفية، القاهرة، 1350هـ، ص18

[19] ينظر، نصار حسين، 1991م، أدب الرحلة، ط1، الشركة المصرية العالمية للنشر، مصر، ص8

[20] ينظر، المرجع نفسه، ص5

[21] أنساعد سميرة، الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دراسة في النشأة والتطور والبنية (دكتوراه)، جامعة الجزائر، 2007،2006م، ص20.

[22] الشوابكة نوال، أدب الرحلات الأندلسية المغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، ط1، دار المأمون للنشر والتوزيع، عمان، 2001م، ص40.

[23] مودن عبد الرحيم، الرواية والرحلة، مجلة القدس العربي، ص11

[24] نجيب محفوظ، رحلة ابن فطومة، دار الشروق، القاهرة، 2007م، ص8

[25] نجيب محفوظ، رحلة ابن فطومة، ص19

[26] المرجع نفسه، ص20

[27] المرجع نفسه، ص61

[28] محمد أحمد القضاة، التشكيل الروائي عند نجيب محفوظ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2000م، ص291.

[29] عبود حنا، من تاريخ الرواية-دراسة-، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، 2002م، ص26

[30] عبود حنا، من تاريخ الرواية-دراسة-، ص29

[31] عبد الله المدني، سياحة تاريخية في أدب الرحلات على ضفاف الثقافة العربية، صحيفة الوسط البحرينية، العدد 148، 2003م

[32] محمود حسني، أدب الرحلة عند العرب رحلات أمين الريحاني نموذجا، الوكالة العربية للنشر والتوزيع، ص32

[33] سعد الله أبو القاسم، عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، ص344

قائمة المصادر والمراجع

1. ابن منظور، لسان العرب، دار لسان العرب، بيروت، 1988م.

2. أبو القاسم سعد الله، عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق
3. أحمد الطرابلسي اعراب، مستويات السرد في الرحلة المغربية خلال القرن التاسع عشر (دكتوراه)، كلية الآداب، الرباط، 1995م.
4. برسي لوبوك، صنعة الرواية، ترجمة عبد الستار جواد، بغداد.
5. جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، ط1، بيروت، لبنان، 1979م.
6. جميلة روباش، م، أدب الرحلة في المغرب العربي (دكتوراه)، قسم الآداب واللغة العربية، كلية اللغات والآداب، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2014م.
7. حسني محمود، أدب الرحلة عند العرب رحلات أمين الريحاني نموذجا، الوكالة العربية للنشر والتوزيع
8. حسين نصار، أدب الرحلة، الشركة المصرية العالمية للنشر، ط1، مصر، 1991م.
9. خطاب الرحلة العربي ومكوناته البنيوية، مجلة علامات في النقد، الجزء 9، المجلد 63، سبتمبر 1993م
10. خليل أحمد خليل، مفاتيح العلوم الانسانية معجم عربي فرنسي انجليزي، دار الطليعة، بيروت.
11. سعيد يقطين، السرد العربي القديم، دار رؤية للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 2006م.
12. سميرة أنساعد، الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دراسة في النشأة والتطور والبنية (دكتوراه)، جامعة الجزائر، الجزائر، 2006،2007م.
13. سيد حامد النساج، مشوار كتب الرحلة (قديما وحديثا)، دار غريب للطباعة، القاهرة
14. شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، رؤية للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 2006م.
15. صلاح الدين علي الشامي، الرحلة عين الجغرافيا المبصرة في الكشف الجغرافي والدراسة الميدانية، منشأة المعارف، ط2، الإسكندرية، 1989م.
16. الطاهر حسيني، الرحلة الجزائرية في العهد العثماني-بناؤها الفني أنواعها وخصائصها (دكتوراه)، قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، 2013/ 2014م
17. عبد الرحمن مودن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، مستويات السرد، دار السويدي أبو ظبي، دار الأهلية عمان، ط1، 2006م،
18. عبد الرحيم مودن، أدبية الرحلة، دار الثقافة، ط1، الدار البيضاء،1996م.
19. عبد الصمد عزوزي، الرحلة في المغرب العربي، دوافعها أنواعها، روّادها، دراسات أدبية، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010م.
20. عبد الفتاح كليطو، المقامات السردية والأنساق الثقافية، ترجمة عبد الكريم شرقاوي، دار توبقال، ط1، المغرب، 1933م.
21. عبد الله المدني، م، سياحة تاريخية في أدب الرحلات على ضفاف الثقافة العربية، صحيفة الوسط البحرينية، العدد 148، 2003م.
22. عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2004م.
23. عبود حنا، من تاريخ الرواية-دراسة-، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، 2002م.
24. فرانك كرمود، مجلة الآداب الأجنبية، الرواية والسرد، محي الدين صبحي، العدد 3، السنة الرابعة.
25. محمد أحمد القضاة، التشكيل الروائي عند نجيب محفوظ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2000م.
26. محمد بن ادريس الشافعي، رحلة الشافعي، المطبعة السلفية، القاهرة، 1350ه.
27. محمد بن عثمان المكناسي، الاكسير في فكاك الأسير، تحقيق محمد الفاسي، المركز الجامعي للبحث العلمي.
28. نجيب محفوظ، رحلة ابن فطومة، دار الشروق، القاهرة، 2007م.
29. نوال الشوابكة، أدب الرحلات الأندلسية المغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، دار المأمون للنشر والتوزيع، ط1، عمان، 2001م.